هجرة الأعيان

من الريف إلى المدن

لم يعد للأسر المصرية أن تفخر بعزتها فى الريف ، فقد كانت لها العزة أيام كانت عصبيات تؤلفها القرابات والأنساب ، وتعلى كلمتها مهابة الإقامة والجوار ، ويضمن احترامها علم الجميع أنها موجودة على مقربة منهم ، ويصون منازلها شعور الاتباع بأن رجالها حاضرون لا غائبون .

على أن هذه العزة المفقودة هى الجانب الخاص من جوانب الخسران الذى أصابت به بلاد الريف المصرى هجرة الأعيان وعميدى الأسر الكبيرة إلى المدن فمنذ اتخذوا المدن دور إقامة واستقرار ، ومنذ جعلوا مواطنهم الأصلية مزارات يذهبون اليها ذهاب الغرباء من ذوى الحاجات ، منذ أصبحت علاقتهم بالريف هذه العلاقة المقطوعة أصابهم ما أصابه من تلف و بوار ، وهددهم ما هدده من خراب و إفلاس .

و إنك إذا تحريت الحقيقة فيما تدل عليه مشاهد الحالة فى الريف لتعلم أن أول خسارة أصابته هى ضياع الرعاية الأهلية وفقد المثال المحتذى وانقطاع الصلة الروحية بين جمهور العامة من أهله وأولئك الذين كانت الوجاهة الذاتية تنزلهم فى القرى والبلدان منازل الرؤساء المهيبين ، وقد نشأ عن ذلك أن فجعت القرية فى وحدتها الاجتماعية فأصبحت لا تستطيع أن تدفع عن نفسها عوادى الزمن لأن مركز الدائرة من هذه الوحدة — وهم الأعيان والسادة — أصبح منذ تحول عن مكانه غير موجود ، ثم لأن ذوى القرى من عامة أهل الريف وسواهم من اتباع العزة على اختلاف مراتبهم وأشياع الولاء والمحبة على تفاوت درجاتهم " لم يعودوا يجدون فى نفوسهم — وأولياؤهم هؤلاء يعيدون عنهم — ذلك الاعتزاز الذى كانوا يجدونه وهم حاضرون بينهم .

لم يعرف اهل الريف الكسل والخمول قبل أن يعرفوهما الآن ، ولم يكن فساد السلوك واختلاله شائعا فيهم بقدر شيوعه اليوم ، ولم يكونوا من قبل يعرفون هذه الجرأة الظاهرة على كرامة الأسر العريقة وأقدار الرجال المحترمين كما عرفوها الآن وكما صارت عادة لا يتحرزون منها بأى اعتبار من الاعتبارات المرعية ، واليوم أصبحت هذه الأمراض الاجتماعية فاشية فى الريف كله ، فالحقول مهملة حتى يشبع أصحابها أو العاملون فيها من قتل الوقت فى مجالس التبطل والفراغ على أبواب الدكاكين أو فى التسلى مع الرفاق بين أرجاء القرية من هنا إلى هناك ، ومتلفات الصحة والرزق مما يشرب أو يبلع أو يدخن أو يشم شائعة بينهم شيوع العادة السهلة فلا ينصرفون عنها إلا ليبحثوا عما يحصلون به عليها حلالا كان أو حراما ، وكل رجل تحفظ له عراقة الأهل أو كرامة العلم أو شرف الاجتهاد فى العمل النافع حق الاحترام ومعرفة المكانة لا يأمن عاديتهم على هذا الحق بالألسنة المبسوطة أو الأيدى الممدودة أو النفوس الجامحة ، وليس لذلك من سبب إلا أن البلاد خلت من كبرائها فغابت أشخاصهم من الأبصار وامتنعت أخبارهم عن الآذان وانقطعت من بينهم تلك المهابة التى كان ينشرها فى كل مكان شعور الجميع أنهم موجودون لا غائبون .

وقد صارت المفسدة بذلك عامة فلا يختص بها الفلاح الصغير الذى أقعدته رقة حاله عن مفارقة قريته دون المالك الكبير الذى أغرته ظواهر القدرة بالخروج الى المدينة وترك القرية التى هى نبع حياته تنعاه وتنعى مصلحته الضائعة بين أرجائها .

ولسنا نبلغ الغاية اذا أردنا أن نحصى آثار هذه المفسدة أو نستقصى وجوه الضرر الذى أدت اليه ولكنا على كل حال نستشهد لتوضيح المسألة بما يأتى :

١ — أصبح الفلاح الصغير لا يخشى اللوم ولا يهاب المسئولية لأن المالك الذى كان يخشى لومه والوجيه الذى كان يتقى المسؤولية أمامه وعميد الأسرة الذى كان يخجله أن يعرف أنه سيئ السمعة رديء العمل ، هؤلاء لم يعد يحسب لهم حسابا بعد أن رحلوا عنه وعن قريته فاستوطنوا المدينة .

٢ — ضعفت همته فى طلب العيش وفترت عنايته باستنبات الأرض ، وقل نشاطه فى خدمة الزرع ، وذهب حرصه على وفرة المحصول وجودته لأنه حرم من القدرة العملية التى تثير فيه هذه المعانى الواجبة منذ أصبح لا يرى أحدا من الأعيان أصحاب الأرض والزرع يخرج فى بكور النهار ليتعهد مزرعته الواسعة بالرعاية والاهتمام وليباشر بنفسه ما يجرى فيها من ضروب العمل وطرقه وأساليبه فلم يعد هذا الفلاح الصغير ينهض مبكرا ويقبل على شأنه جادا نشيطا خشية أن يعاب بالخمول والإهمال وقلة المعرفة اذا جاء محصوله المتواضع أقل جودة من المحصول الوفير فى هذه المزرعة الواسعة .

٣ — زالت من الريف مهابة كبرائه لأنهم بعيدون عنه فزالت معها خشية الإقدام على الشر لأن أولئك المغامرين من فتيانه أمنوا بارتحال الكبراء عن بلادهم صين الرقيب وصولة المؤدب .

٤ — امتدت يد العبث الى مصالح الأعيان الغائبين فأصبحت عرضة للتبدد والضياع وصارت ضحية الإهمال والتفريط ، وفى هذا خسارة لا يعرفها أحد أكثر مما يعرفها أصحاب هذه المصالح .

٥ — حينما كان الأعيان مقيمين فى بلادهم كانوا يملكون ضمان السلامة من علل المدنية العصرية وأوبائها فلم يكونوا على مقربة من تيارها الجارف ، ولكنهم منذ تحولت إقامتهم الى المدن جعلوا أنفسهم وأهليهم عرضة لهذا التيار ، فأصبحوا هم وأهلوهم لا يستطيعون النجاة من هذا التيار كما لا يستطيعون عدم الوقوف فى طريقه ، وبذلك انتقلت اليهم العدوى فى الأخلاق والعادات ، وحرموا وفرة الرزق من الحلال الطيب ، ولزمهم من تكاليف المدنية العصرية ومطالبها ما لا سبيل الى الخلاص منه ، فهم يتكلفون الكثير من أجور المساكن الضخمة وأثمانها ومما تحتاج اليه من أثاث يليق بالمسموع من وجاهتهم والمذكور من غناهم ، وقد كانوا فى بلادهم لا يتكلفون من ذلك شيئا ، وهم لا ينتقلون ولا ينتقل أبناؤهم ونساؤهم من مكان الى آخر إلا فى سيارة فخمة مملوكة أو مستأجرة ، وهم لا يجدون أسباب القدرة على مدافعة العادات العصرية الشائعة كسهر الأندية والملاهى وما يستتبعه من شر لا خير معه ، فقد اعتادوه واعتاده أبناؤهم وأهلوهم ، وكرهوا أن يظهروا مقصرين فى ميدانه فخلطوا أنفسهم وأبناءهم وأهلهم بأصدقاء المرح والليالى الساهرة ، وكل هذه الأساليب من مظاهر الحياة الصاخبة فى المدينة بلاليع تفنى فيها البحار ، فلو أن ثروة أحدهم كانت بحرا لما بقيت منها قطرة وهى تحدر الى هذه البلاليع .

على أن هناك سرا أعظم من هذا السر لا ينكرون أن اقامتهم فى المدينة هى التى أصابتهم به ونرى من اخلاص النصيحة أن نشير اليه بما يكفى لفهمه ، وسنفرض فى هذه الإشارة أن لفلان من كبار الأعيان وأهل النسب الشريف والأصل العريق بضع فتيات أنشأتهن قصور القاهرة البديعة فى أرقى مرتع من مراتع التمدين العصرى ، فهل يعلم فلان هذا أن أحدا من نظرائه فى الريف خطب إحداهن لنفسه أو لابنه ؟ كلا ، فإن حدث شىء من ذلك فهو النزر الذى لا يقاس عليه ، ثم هل يعلم أن أحدا من شبان البيوت الكريمة الأصل فى القاهرة فعل ذلك ؟ كلا ، فإن حدث مرة واحدة فهو الشذوذ الذى لا يطرد معه الحكم .

ولكن فلان هذا ، هل يعلم سبب التعنس الذى أصاب فتياته أو لا يعلمه ؟ مهما يكن فالسبب واضح ، فأهله لايخطبون للزواج من تتبرج وهى فتاة ، ومن تسهر الليل وحدها أو مع الرفيقات المماثلات أو مع الخادم الكبير أو مع سائق السيارة أو مع الأخ الصغير فى الأندية والمسارح ودور اللهو المباح وغير المباح ، أما شبان المدن فيقولون : ما حاجتنا بالفاكهة وهى على أطراف الشجر وبين وخزات الشوك ووراء أسوار الحديقة ما دامت متوفرة فى سوق الخضر.

وانا لنرجو أن تتيقظ ضمائر الأعيان بهـذه الإشارة اليسيرة ، كما نرجو أن يضعوا كل شأنهم فى الميزان ، فهناك الحقيقة التى لا تغيب عنهم ، وهى أنهم يهملون بالإقامة فى المدن مصالحهم فى الريف فتضيع ، وتكلفهم حياة المـدن أضعاف ما تكلفهم حياة الريف حين لا يسعفهم نضوب مواردهم بمـا تتطلبه هذه الحياة فيمدون أيديهم إلى الدين ، ويعجزهم نضوب الموارد مع النفقات المضاعفة عن الوفاء بأقساط الدين فتصبح أملاكهم عرضة للضياع ، وتصبح الدولة حائرة بهم كلما تعلقوا من التسوية العقارية بما يتعلق به الغريق .

ان جلالة الملك المعظم لا يزال يشرف الأعيان فى المناسبات الطيبة بإنعام الرتب والنياشين ، وهو انعام لم يؤهلهم له الا وصف واحد معين هو وصف أنهم أعيان البلاد ، وهذا الإنعام الكريم يحمل فى طيه دليل الرضا والتقدير ، ولكن هل يفهم هؤلاء الأعيان أنهم يحققون فى أنفسهم هـذه الصفة التى لم يزل مديرو الأقاليم يجعلونها مسوغا لتشريفهم بالرتب والنياشين التى يلتمسون الإنعام بها عليهم وكيف لمن تصرفه الإقامة الدائمة فى المـدن عن مصالحه فى الريف ومصالح بلده ومواطنيه أن يعد من الأعيان فى بلده الأصلى أو فى إقليمه ؟

فمن حسن التأدب فى شكر النعمة أن يعودوا إلى بلادهم ليحققوا فى أنفسهم وصف أنهم أعيانها وليتعهدوها من وسائل الاصلاح والخير بما يصبحون به جديرين بما نالوا و بما يطمعون أن ينالوه .